الـفصل الثانى

بزوغ شمس الإمبراطورية المصرية فى الشرق الأدنى القديم

obeikandl.com

obeikandl.com

حين تخلصت مصر من احتلال الهكسوس البغيض بعد معارك حرب التحرير المجيدة التى خاضها الجيش المصرى بقيادة الملك « أحمس الأول » (١٥٥٠ – ١٥٢٥ ق.م) مؤسس الأسرة الثامنة عشرة وأول ملوك عصر الدولة الحديثة ، والذى عمل على تتبع الهكسوس حتى جاهى واستئصال شأفتهم تماماً ، رأى الملوك الأوائل للأسرة الثامنة عشرة أن خير وسيلة للحفاظ على أمن البلاد هو اتباع استراتيجية التوسع العسكرى شرقاً وجنوباً بغية تكوين الإمبراطورية المصرية ، ولحماية حدود مصر من تكرار مثل هذه النوعية من الغزوات المريرة مرة أخرى .. ومن ثم فقد قام الملوك الأوائل للأسرة الثامنة عشرة بمجموعة من الحملات الحربية المهمة على سوريا وفلسطين والنوبة ، كانت ذات أثر كبير فى توطيد النفوذ السياسى والحربى لمصر فى منطقة الشرق الأدنى القديم ، والتى شهدت بزوغ شمس الإمبراطورية المصرية فيها.

أحمس الأول وغزو النوبة ..

بمجرد أن أنتهى الملك « أحمس الأول » من حروبه ضد الهكسوس ، وبعد أن قام بالاستيلاء على شاروهين (جنوبى غزة) ، واستطاع أن يؤمن الحدود الشرقية لمصر الموحدة ، أتجه إلى بلاد النوبة ، والتى يبدو أن أصحاب بعض من مناطقها قد استغلوا فرصة ضعف الرقابة عليها ، وانشغال المصريين بمحاربة الهكسوس ، فشقوا عصا الطاعة ، وأغاروا على الممتلكات المصرية ، وخربوا حصن النوبة ، مما دفع « أحمس » إلى الاتجاه نحو الجنوب لاستعادة السيادة المصرية هناك بثلاث حملات حربية .. ويرى بعض المؤرخين أن توجه « أحمس الأول » إلى غزو النوبة قد حدث فى العام الثانى والعشرين من حكمه. والجدير بالذكر أن أهم مصدر لنا عن هذه الحملات قد عرفناه من نصوص القائد العسكرى « أحمس بن إبانا » المسجلة على جدران مقبرته بالكاب.

ولقد تمكن الملك « أحمس الأول » من تحقيق النصر فى حملاته الحربية على النوبة ، ولا نعرف تحديداً إلى أى مدى وصلت حملات الفرعون جنوباً ، وإن كانت الآراء تتجه إلى منطقة الجندل الثانى على الأقل ، وأن الفرعون بسط نفوذه على أطلال قلعة بوهن القديمة. وقد عين « أحمس الأول » رجلاً يدعى « تورى » قائداً لحصن بوهن ، وهو نفس الشخص الذى حكم النوبة وأول من حمل اللقب المميز لحكام النوبة خلال عصر الدولة الحديثة « ابن الملك المشرف على الأراضى الجنوبية » أى نائب الملك فى النوبة ، وذلك خلال عهد الملك « أمنحتب الأول » (١٥٢٥ – ١٥٠٤ ق. م) فى العام السابع من حكمه .. ولقد ظهر اسم الملك « أحمس الأول » على قلعة تم انشاؤها بجزيرة صاى إلى الشمال من الجندل الثالث ، مما يؤكد على وصول الجيوش المصرية إلى هناك خلال عهده.

رؤية إستراتيجية جديدة ..

فى أعقاب تحرير مصر من الهكسوس رأى الملوك الأوائل للأسرة الثامنة عشرة أنه من الأفضل الاتجاه نحو آسيا على حساب الاتجاه نحو الجنوب ، وذلك على عكس ملوك عصر الدولة القديمة وملوك عصر الدولة الوسطى ، فقد أعتقد ملوك طيبة أن سياسة تأمين الحدود الجنوبية قد حققت أهدافها وذلك بعد الوصول إلى الجندل الرابع بالقرب من نباتا خلال إعادة غزوهم للنوبة مرة أخرى فى مطلع الأسرة الثامنة عشرة والذى سنشير إليه لاحقاً. فبينما كان الطابع العام للسياسة الخارجية فى عصر الدولتين القديمة والوسطى هو الدفاع ، بدأ ملوك الدولة الحديثة سياسة الهجوم ، ويمكن أن نقول عنها أيضاً سياسة الدفاع وتأمين الحدود فى الوقت نفسه .. هذا الاتجاه كان جديداً فى مصر ، فقد كانت السياسة التقليدية لملوك مصر تجاه آسيا هو الحذر والدفاع ، ولكن هذه السياسة باءت بالفشل بسبب طبيعة الأحداث نفسها وحدوث الغزو الأجنبى لمصر على يد الهكسوس ، وهو الغزو الأجنبى الأول فى تاريخها. وعلى مدى أكثر من قرن ، قاست مصر من نير الاحتلال الأجنبى ، فأخذت مصر تبحث عن طريقة تتجنب بها عودة مثل هذه الكوارث الخارجية مرة أخرى ، وأعتقد ملوك هذا العصر أن التحرك والهجوم هما الوسيلتان الفضليان لمنع الغزوات المهينة التى تعرضت لها البلاد على غرار غزو الهكسوس ، فتركز اهتمامهم على الجيش وتنمية قدراته الدفاعية والهجومية ، وقد أثبتت

الأحداث نفسها صحة هذا الاتجاه .. ولقد أدرك المصريون كذلك أنه لا أمان لتجارتهم الخارجية من اعتداءات الهكسوس إلا إذا أبعدوهم عن مسالكها جهد ما يستطيعون ، وأنه لا أمان لهم من غزو هجرات شعوبية جديدة إلا إذا سيطروا بأنفسهم على مداخل الهجرات فى شمال سوريا وأطراف العراق. ويبدو من شواهد الأحوال أن فلول الهكسوس بعد هزيمتهم الأخيرة أمام الملك « أحمس الأول » فى شاروهين ، قد اضطربوا فى بقاع الشرق القريب يضربون بين أقاليمه المختلفة ابتغاء الفتنة ، وأنهم أحسوا صدى دعوتهم فى بلاط بعض الأمراء السوريين الذين باتوا يخشون خطر المصريين وازدياد قوتهم وتقدمهم فى الزحف بين بلاد الشرق الأدنى القديم.

وانطلاقاً من كل هذا ، فلقد أدرك المصريون حقيقة الخطر القائم عند الحدود الشرقية ، وعلى ذلك فقد أيقنوا أن حدودهم الشرقية إنما تبدأ فى سوريا ، وأن البوابة الفعلية تقع عند جبال طوروس ، وأن البلاء الذى قد يحل بمصر لابد أن يقضى فى طريقه على بلاد الشام ، فهو بلاء مشترك لا تستطيع الدويلات السورية أن تصده وحدها ، فهى ليست لها الكيان السياسى للدولة الموحدة – كما كان الأمر فى مصر منذ أكثر من ستة عشر قرناً – ومن ثم فهى ليست بقادرة على صد هجرات جديدة أو كسر شوكة الهجرات الموجودة على أطرافها ، دون دفع داخلى أو عون خارجى .. ومن هنا توسعت الإمبراطورية المصرية إلى حدودها القصوى كلما أمكنها ذلك ، لا كالاستعمار بالمعنى المفهوم ، وإنما لنشر السلام المصرى ، حتى أنه ليمكن القول أن الإمبراطورية المصرية كانت فى جوهرها ، وفى معنى ما « إمبراطورية دفاعية » أساساً ، حتمتها ظروف الصراع الاقليمى والاستراتيجية العريضة فى الشرق الأدنى القديم .. وعلى ذلك فقد أدرك فراعنة مصر خلال عصر الدولة الحديثة أن السياسة الوحيدة الفعالة إبان تلك الحقبة هى السيطرة الحربية لطريق الغزو من وديان العاصى (الأورنت) والأردن أو سوريا وكنعان ، ووضع قوة لمنع الاحتكاك عند مدخل ممر الغزو فى إقليم حلب بين الفرات والعاصى.

ومن ثم فقد هدفت الاستراتيجية العسكرية المصرية خلال عصر الدولة الحديثة إلى تكوين مناطق خاضعة للنفوذ المصرى سياسياً فى سوريا ، وذلك دون أن يكون من وراء هذه السياسة أى فكر استعمارى للتوسع أو للاحتلال أو حكم شعوب أخرى بالقوة العسكرية ، ولكن سعى

المصريون إلى تكوين سياج من الصداقة من أجل المحافظة على المصالح المتبادلة والدفاع عن الموالين لصداقة مصر والتصدى لأعداء النفوذ المصرى .. وفى الواقع فقد كانت سياسة ملوك مصر الخارجية منذ عصر الدولة القديمة خالية من فكرة التوسع أو الجور على الآخرين لأن هذا كان جزءاً من طبيعة وتكوين الشخصية الحضارية المصرية ، ولم تكن تميل هذه السياسة إلى تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف أو حكم شعوب أخرى بالقوة العسكرية كما كان يروج دائماً بعض علماء الدراسات المصرية من الغربيين ، وهو الأمر الذى لا يتفق معه بعض علماء المصريات من المصريين.

أما عن الاستراتيجية المصرية نحو الجنوب ، فقد أصبحت الحملات الحربية المصرية على بلاد النوبة (كوش) هدفاً استراتيجياً دائماً بالنسبة للجيش المصرى طوال عصر الدولة الحديثة ، وقد دأب ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة على شن الحملات الحربية هناك بغرض القضاء على أى تمرد قد تلقاه السيادة المصرية ولتوطيد الحكم المصرى فى تلك الجبهة الجنوبية ذات الأهمية البالغة بالنسبة لمصر ولإمبراطوريتها الشاسعة ، وهو الأمر الذى أكدت عليه الأدلة الأثرية والنصية المختلفة التى أوضحت لنا السياسة الحربية المصرية تجاه الجنوب خلال عصر الدولة الحديثة .. وترجع أهمية النوبة لمصر إلى حاجة مصر إلى مواد خام معينة تفتقر إليها أو يندر وجودها فيها ، وفى مقدمتها الذهب الذى وجدت مناجمه فى وادى حلفا ، هذا إلى جانب حاجة المصريين إلى الإبقاء على طريق الجنوب مفتوحاً ، فالبخور والصمغ والعاج والأبنوس والفهود انما كانت تأتى من وراء الجندل الثانى بمسافات طويلة فى اتجاه الجنوب ، كما كان للنوبة دورها كممر تجارى فى إقامة حلقة اتصال بين منتجات أفريقيا ودول البحر المتوسط وغربى آسيا منذ الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل.

أمنحتب الأول وبداية الزحف ..

خلف " أحمس الأول " على عرش مصر ابنه " أمنحتب الأول " (١٥٢٥ – ١٥٠٤ ق.م) ، فأتبع خطى والده وسار على نفس سياسته ، فخرج على رأس جيشه إلى ما وراء الحدود المصرية فى الشمال الشرقى. وتعوزنا الأدلة الأثرية والنصية التى توضح تفاصيل حروبه فى بلاد الشام ، وإن كان يستدل من نص كتبه ابنه وخليفته " تحوتمس الأول " حين ولى العرش

وذكر فيه أن مملكته تمتد إلى الفرات ، مع أنه لم يكن قد قام بعد بحملة ما ، مما يشير إلى أن إخضاع المنطقة الواقعة إلى الشمال الشرقى من مصر حتى الفرات قد تم فى عهد سلفه. كما يلاحظ كذلك ورود اسم دولة ميتانى فى نصوص أحد رجال الملك « أمنحتب الأول » وذلك لأول مرة فى النصوص المصرية ، ويشير ذلك إلى أن جهود « أمنحتب الأول » الحربية قد ترتب عليها زيادة المعرفة بأحوال الشرق القديم وأحوال دوله. وقد كانت دولة ميتانى ، دولة آرية الأصل ، نزلت جماعاتها فى شمال شرق سوريا وأطراف العراق منذ أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد وتركزت أهم مدنها على نهرى الخابور والفرات.

ولم تغب الجبهة الجنوبية فى بلاد النوبة عن حملات الجيش المصرى خلال عهد الفرعون « أمنحتب الأول » ، ففى العام الأول من حكمه اضطر الملك الشاب للذهاب إلى النوبة لإخماد تمرد قام به السكان المحليين ، الذين ظنوا فيما يبدو أن الفوضى التى صاحبت تغيير الحكام فرصة ممتازة يمكن أن يغتنموها للتخلص من السيطرة المصرية ، والتهرب من أداء الجزية. وتؤكد الأدلة الأثرية أنه قد وقعت على القائد « أحمس بن إبانا » الكابى مسئولية نقل الملك وقواته إلى الجنوب ، ويبدو أن الفرعون قد أشترك شخصياً فى المعركة ، وأنه « ... كان يزأر كالنمر ، وأطلق جلالته أول سهم فغرس فى عنق العدو » ، وقد رقى القائد « أحمس بن إبانا » أثناء هذه الحملة إلى رتبة « رئيس البحارة » .. وأنتهت الحرب بسرعة وهدأ النوبيون مرة أخرى ، وعلى الصخور الجرانيتية فى الضفة الشرقية المقابلة لجزيرة تومبوس بمنطقة الجندل الثالث ، عثر على نقش مؤرخ بالعام الثانى من حكم « أمنحتب الأول » يصف بعبارات شعرية انتصاراته الحربية العظيمة ، فنقرأ « تقدم إلى نهاية العالم بقوته الظافرة ، باحثاً عن أحد يحاربه ، فلم يجد أحداً يمكنه أن يقف فى وجهه ، إنه سار فى وديان لم يرى فيها أحداً من الملوك السابقين ، وخضعت له جزر النهر ، وكل الأرض أصبحت تحت قدميه ... ».

ويبدو أن الفرعون قد قام بحملتين أو ثلاث فى بلاد النوبة وما وراءها ، فيتضح لنا من خلال النصوص التى تركها لنا القائدان الشهيران « أحمس بن إبانا » و« أحمس بن نخبت » ، أن الأول قد ذهب فى حملة مع الفرعون ضد الأونيتيو (النوبيين) الذين ربما سكنوا الصحراء إلى الشرق أو الغرب من وادى النيل واعتادوا أن يغيروا على السكان الذين يقطنون النوبة المصرية ، وقد ذهب إلى هناك ليوسع حدود مصر على حد قوله ، حيث يقول فى نصوصه :

« أبحرت مع الملك جسر كارع (أمنحتب الأول) المبجل عندما توجه جنوباً إلى كوش لتوسيع حدود مصر ، وقبض جلالته على الحاكم الكوشى وسط جنوده ». ويذكر الثانى حملة واحدة ضد كوش نجح أثناءها فى القبض على أسير.

أما عن حملات « أمنحتب الأول » فى الجبهة الغربية (الليبية) ، فقد أشار القائد الشهير « أحمس بن نخبت » إلى ذلك الأمر من خلال جملة واحدة فى نقوش مقبرته ، حيث أشار إلى أنه ذهب فى حملة حربية مع الملك ضد الليبيين ، وأنه استولى على ثلاثة أسرى فى شمال ايامون بلاد كهك (أو ايامو كهك) ، وربما وقعت هذه الأماكن فى الصحراء الليبية لأنها غير معروفة حتى الآن.

تحوتمس الأول وبلوغ الفرات ..

يعد الملك « تحوتمس الأول » (١٥٠٤ – ١٤٩٢ ق. م) هو أول من وضع اللبنة الأولى فى سياسة تكوين مناطق نفوذ خارجية لمصر فى آسيا ، وربما أيضًا كان سببًا فى نجاحها واستمرارها لفترة ما. فبعد أن عاد الملك « تحوتمس الأول » من حملته الحربية الأولى على بلاد النوبة ، قام بحملة على فلسطين وسوريا ، ثم وصل إلى نهر الفرات فى العراق ، والذى أسماه المصريون باسم (النهر ذو المياه المعكوسة) ، إشارة إلى أنه يجرى من الشمال إلى الجنوب ، أى عكس نهر النيل الذى يجرى من الجنوب إلى الشمال. وبعد أن أقام لوحته على ضفاف الفرات معلنًا انتصاره وحدود إمبراطوريته ، قضى هناك بعض الوقت فى الصيد ، وخاصة صيد الفيلة فى منطقة نى ، وأرسل عددًا منها إلى معبد آمون بالكرنك .. ويبدو أن الهدف من الحملة على سوريا لم يكن سوى مظاهرة عسكرية لإظهار قوة مصر. ولقد نجح الفرعون من خلال حملته الحربية هذه فى اختراق منطقة الفرات إلى بلاد نهرين حيث يحكم ملك ميتانى فى شمال شرق سوريا ، قرب نهر الخابور والفرات ، وقد استعان « تحوتمس الأول » بالتحركات القوية الخاطفة ، ومرق بجيشه من مصر عبر سوريا فى سرعة غريبة دون مقاومة كبيرة ، حتى بلغ أرض نهرين (ميتانى) ، حيث أقيمت لوحة تذكارية عند قرقميش ، وحيث حدثت مذبحة ضخمة ، وأخذ الكثيرين من الأسيويين كأسرى.

ويمكننا القول بأن الملك « تحوتمس الأول » قد واصل سياسة أسلافه فى بلاد الشام ، فعمل

على السيطرة على مداخل التجارة ومداخل الهجرات فى شمال سوريا وأطراف العراق .. والجدير بالذكر أن الفرعون « تحوتمس الأول » قد ذكر عن نفسه من خلال أحد النصوص ما يدل على طبيعته العسكرية فذكر « إن ساعة الحرب أشهى عندى من يوم هنى ». كما وصفت النصوص المصرية حملاته الحربية بأنه استطاع أن يمد حدود مصر « من قرن الأرض فى الجنوب ، إلى أطراف المياه المعكوسة فى الشمال » ، أى من جبل البرقل والجندل الرابع فى الجنوب ، حتى أطراف مياه الفرات فى الشمال .. ولعل خير وصف لتلك الحروب التى قد خاضها والانتصارات التى حققها « تحوتمس الأول » فى الشرق والجنوب قد تجسد من خلال تلك العبارة التى سجلها على إحدى لوحاته قائلاً : « لقد أطلقت حدود مصر إلى ما تحيط الشمس به ، وعوضت أهلها بعد خوفهم قوة ، وأقصيت الشر عنها .. وجعلتها فوق رأس الدنيا كلها ، وجعلت الجميع أتباعاً لها ».

القضاء على مملكة كوش وبلوغ الجندل الرابع ..

كانت تلك الحملة الحربية الحاسمة التى خاضها « تحوتمس الأول » فى بلاد النوبة سابقة لحملته الأسيوية التى تحدثنا عنها والتى بلغ فيها بالجيش المصرى نهر الفرات ، ولقد سجلت تفاصيل هذه الحملة من خلال نقش صخرى كبير ، عثر عليه منحوتًا فى الصخر فى مواجهة جزيرة تومبوس (وراء الجندل الثالث) ، وعلى مبعدة ٣٢٠ كم جنوبى وادى حلفا ، فضلاً عن نصوص السيرة الذاتية للقائد « أحمس بن إبانا » فى مقبرته بالكاب ، حيث تشير النصوص إلى أن الغرض من هذه الحملة كان مد الحدود الجنوبية لمصر إلى الحد الذى كان الفرعون يعتقد أنه مداها الطبيعى ، حتى وصل إلى منطقة تقع على مقربة من الجندل الرابع .. وقد ذكرت نصوص الفرعون حدوث تمرد من قبل كوش على السيادة المصرية مع بداية حكمه ، فقاد الفرعون جيشه عبر النهر للقضاء على التمرد وحقق النصر على الكوشيين فى معركة حاسمة ، ومع انتصاره فى المعركة قام الفرعون بقتل حاكم كوش بنفسه ، بل وعلق جثمانه فى سفينته التى عاد بها عبر نهر النيل إلى العاصمة طيبة محتفلاً بانتصاره على الكوشيين .. ويبدو أن الجيوش المصرية بقيادة الفرعون قد وصلت حتى منطقة الجندل الخامس ، بعد أن قام بالهجوم على مدينة كرما واستولى عليها ، ليضع بذلك نهاية حاسمة لمملكة كوش.

وقد شيد « تحوتمس الأول » سلسلة من الحصون فى تومبوس وعلى جزيرة صاى كما تشير لوحته التى أقامها فى تومبوس ، ولا شك أنه فى أواخر عصره كانت النوبة فى يد قوية. كما عمل الفرعون على إعادة بناء الكثير من حصون الدولة الوسطى ووسع بعضها ، ويبدو أن هذا العمل قد تم إنجازه تحت إشراف حاكم النوبة وقتها « تورى ».

تحوتمس الثانى وقهر التمرد فى البقاع الجنوبية ..

بدأ الملك « تحوتمس الثانى » (١٤٩٢ – ١٤٧٩ ق. م) حكمه بالقضاء على ثورة فى الجنوب ، بالقرب من الجندل الثالث ، على أنه لم يقم بحملة تأديبية ، بل أغلب الظن أنه قد اكتفى بقضاء القوات العسكرية التى كانت تقطن فى المنطقة على الثورة ، وذلك قبل وصول قوات الملك ، ولكنه وصل حتى الجندل الأول ، واستعرض الأسرى الذين جىء بهم من الجنوب .. وقد جاء ذكر هذه الثورة فى بلاد كوش على لوحة أقيمت على الطريق بين أسوان وفيلة ، وتذكر نقوشها أنه « لما علم جلالته بذلك ثار كالفهد ، وأقسم أنه لن يدع أى رجل من هؤلاء حياً » ، وبالفعل قضى على هؤلاء الثوار. ويذكر النص : « جاء أحدهم ليبلغ جلالتى بالآتى .. إن كوش الخاسئة بدأت تثور ، هؤلاء الذين كانوا تحت إمرة سيد الأرضين يعتزمون العدوان وبدأوا يضربون .. ثم وصل جيش جلالته إلى كوش الخاسئة .. إن جيش جلالته قد قهر البرابرة ، ولم يترك أحداً من ذكورهم حياً ، وذلك حسب أوامر جلالته ، ووضعوا تحت أقدام الملك الطيب ، إذ إن جلالته ظهر على عرشه عندما أحضروا الأسرى الأحياء الذين قبض عليهم جيش مصر .. وأصبحت هذه الأرض تابعة لجلالته كما كان الحال من قبل ».

والجدير بالذكر أن الجبهة الأسيوية قد شهدت تحركاً عسكرياً مهماً من قبل الملك « تحوتمس الثانى » ، حيث قام بحملة حربية فى آسيا ضد قبائل بدو الشاسو ، وقد ذكر القائد « أحمس بن نخبت » من خلال نصوصه مرافقته للفرعون فى هذه الحملة فى فلسطين.

* * * * *

obeikandi.com

المراجـع

- Emery, W.B., Egypt in Nubia, London (1965).
- Gardiner, A.H., Egypt of the Pharaohs, Oxford (1964).
- Grimal, N., A History of Ancient Egypt, Oxford (1992).
- James, T.G.H., 'Egypt: From the Expulsion of the Hyksos to Amenophis I', in: CAH, II, Part 2, Cambridge (1973).
- Leclant, J., Egypt in Nubia during the Old, Middle and New Kingdom, New York (1978).
- Morkot, R.G., Historical Dictionary of Ancient Egyptian Warfare, Oxford (2003).
- Newby, P.H., Warrior Pharaohs, London (1980).
- Säve-Söderbergh, T., Ägypten und Nubien, Berlin (1941).
- Spalinger, A.J., War in Ancient Egypt, Malden (2005).
- Taylor, J.H., Egypt and Nubia, London (1991).
- Trigger, B.G., Nubia under the Pharaohs, London (1976).
- Weigall, A., Histoire de L' Egypte Ancienne, Paris (1968).

Openkanal.com